من خواطر مجحا (الحالم اليقظان) :

قصة الساحر والتاجر

[مهداة إلى أعلام السياسة وأساطين الاقتصاد]

للأستاذ كامل كيلاني

تنقل القصة التالية عن المقدمة النفيسة التي افتتح بها « أبو الفصن جحا » خواطره التي أهداها إلى ولديه « جحوان » و« جحية » . وقد ضمها مخطوط جحوي نفيس ، لعله مكتوب بخط أحد معاصريه أو بخط ابن أخيه : أبي السبهلل : « طارق بن بهلل بن ثابت » .

وسيرى قارئ القصة كيف استطاع الساحر أن يحول الدنانير الذهبية ذات الرنين الفاتن والبريق الخلاب ، — منذ مائتين وألف من السنين — ورقا عادياً لا قيمة له ولا خطر ، قبل أن يهتدي إلى ذلك أعلام السياسة وأساطين الاقتصاد في هذا العصر ، الذين استطاعوا — بفنون سحرهم — أن يحولوا الملايين من أموال حلفائهم ورقاً لا نفع فيه ولا غناء ، ولا قدرة له على البيع ولا الشراء . كما استطاعوا من قبل — بفنون حقدهم — أن يحولوا ثروة العالم صواعق ومهلكات تدمر الدنيا بمن فيها ، وتنسف المدن بساكنيها ، وتحيل الجبال الشم أودية ووهادا ، والأحياء — من الحيوان والإنسان — فحما ورمادا .

قال « أبو الفصن عبد الله دجين بن الثابت » الملقب بجحا :

« كنت في زمن الطفولة الباكر حين وقعت حوادث هذه القصة لأبي عُوَيْف بن جعفر ، وكان تاجراً أميناً معروفاً بين الناس بالورع والتقوى ، موصوفاً بالبر والإحسان ، وهو من جيراننا الأقربين ، وكان جزاراً ناجحاً في تجارته ، فلم يلبث أن ذاع صيته ، واستفاضت الأحاديث الحسنة عما يسديه إلى الفقراء والمعوزين من فنون البر سراً وعلانية .

وذات صباح وفد عليه شيخ وقور مهيب الطلعة رائع السمت يدعى « أبا تميم بن زهير » قد جلل المشيب رأسه ولحيته ، وتألق وجهه بشراً ونوراً ، حتى ليحسب من يراه — أول وهلة — أنه من أولياء الله الصالحين .

ولم يكد يحييه حتى خف إليه التاجر مرحباً بمقدمه ، متبركا بلثم يده ، يسأله أن يأمر فيطاع .

فهمس الشيخ « أبو تميم » في أذن التاجر يخبره بما اجتمع عليه أمره من بذل في سبيل الله . فقد اعتزم أن يشتري منه كل صباح لحم خروف بدينار ليفرقه على طائفة من المحتاجين . ثم أعطاه — من فوره — ديناراً لامعاً مشرق الجدة . وانتهزها التاجر فرصة للتبرك بنقود هذا الشيخ الصالح ، فاعتزم أن يدخر دينار حتى ينتهي العام ، فيشتري بها ما يحتاج إليه من ماشية وأغنام ، فأسقط الدينار من ثقب في أعلى درج خفي . وجرى كلاهما على عادته : يشتري الشيخ كل يوم خروفاً بدينار ، ويضعه الجزار في صندوقه ، حتى إذا أشرف العام على نهايته ، فتح التاجر درج النقود المدخرة ، فهاله ما رأى ، وفزعه أن يجد أوراقاً صفراً مستديرة — بعدد أيام السنة — مكان الدنانير الصفر الجديدة التي أخذها من الشيخ .

وسرعان ما تبين التاجر جلية الأمر ، وعرف حقيقة الشيخ وأدرك أنه مدلس كبير وساحر خطير ، فتربص به وهو يكاد يتميز من الغيظ ، حتى إذا أقبل « أبو تميم » اندفع إليه الجزار صاخباً لاعناً مشهراً بسوء فعلته .

وثمة عرف الساحر أن أمره افتضح ، وسره وضح . فهمس في أذن التاجر مستعطفاً رجوه أن يخفض من صوته حتى لا يسيء إلى سمعته ، واعداً إياه بمكافأة سنية عاجلة إذا صفح عن زلته ، وتجاوز عن إساءته . فلم يزد الجزار إلا تمادياً في صياحه وتشهيره ، ووعيده ونكيره . وأقبل الناس يحاولون أن يهدئوا من ثورته الجامحة وهو آخذ بتلابيب خصمه ، ممعن في هياجه ، متمادٍ في لجاجه ، حتى إذا يئس الشيخ من صفح التاجر قال له منذراً متوعداً بصوت ثائر ، مجلجل في أجواز الفضاء كأنه الرعد القاصف :

« لقد صبرت عليك طويلا ، فلم تزد إلا تماديا وإصرارا ، فاعلم أن لكل شيء آخرا ، وأن للحلم حداً لا سبيل إلى تجاوزه . وإني منذرك — على ملأ من الحاضرين — أنني معلن ما خفي من أمرك ، ومذيع ما بطن من سرك ، إذا لم تكف عن هذيانك وخرافاتك ، وتقلع عن إساءتك وتُرَّهاتك » فاشتد غيظ التاجر على الساحر وقال له في تهكم الساخر :

« وأيُّ تهمة يستطيع مثلك أن يعزوها إليَّ ؟ » .

فأجابه الساحر فى جرأة سافرة ، ووقاحة فاجرة ، وقد جمع كيده وسحره ، وحشد مكره وغدره :

« أستطيع أن أعلن لهم حقيقتك وأفضى إليهم بما تقترفه من فنون الاجرام وكبائر الآثام ، فأدلهم على ماتخفيه فى الصندوق من رءوس الآدميين الذين تذبحهم كل يوم لتبيع الناس لحومهم بعد أن تخفى رءوسهم » .

ولم يكد الساحر يتم فريته حتى أسرع الناس إلى دكان الجزار فرأوا مصداق ما افتراه الساحر بعد أن خيل لهم سحره أن لحوم الخراف المعلقة لحوم بشرية ، والرؤوس التى فى الصندوق رؤوس آدمية . ولم يتمالكوا من فرط غيظهم أن ينهالوا على التاجر سباً وشتماً وضرباً ولكماً ، حتى إذا أغمى عليه رآها الساحر فرصة سانحة للهرب ، فتسلل إلى بيته ناجياً بعد أن أفلحت مكيدته ونجحت دسيسته .

وذاعت قصة التاجر ، فأقبل القاضى عليه ، بعد أن زال سحر الساحر ، فلم ير إلا خرافاً معلقة لحومها على باب الدكان . فلما فتح الصندوق لم ير إلا رؤوسها . ولما أفاق التاجر عرف القاضى منه تفصيل ماحدث . فأدرك — حينئذ — براءته من تلك التهمة النكراء ، والخزية الشنعاء ، بعد أن هدم شرفه ولوثت سمعته . ولم يلبث أن ذاع صيت هذا التاجر بين الناس ، بعد أن رأوا من الظاهر الكاذبة ماأقنعهم بأن الشيخ جان أثيم ، وشيطان رجيم ، وإن دلَّ مخبره على أنه محسن رحيم وملك كريم .

* * *

مات هذا التاجر المحسن اليوم — بعد أن مرَّ على قصته ربع قرن — وكان مُشيِّعُوهُ إلى قبره يذكرونها متعجبين لما أصابه من كيد الساحر الأفاك . أما أنا فقد وَعَيْتُ قصته منذ طفولتى ، فلم أقع فى مثل هذه الورطة مع أحد من الأشرار — وما أكثر ما لقيت منهم — فقد وجدت فى التنابى مهرباً من الاشتباك معهم فى صراع قلَّ أن ينتهى بخير .

وقد آثرتُ أن يتهمنى الأغرار بالغفلة على أن أزج بنفسى فى مُحرِجات لا أدرى كيف أخرج منها .

وطالما ذكرت مادار بين عمرو بن العاص ومعاوية من حوار معجب حين قال أولهما للثانى مفاخراً بلباقته وسرعة خاطره : ما دخلت مأزقاً قط إلا عرفت كيف أخرج منه » وكيف أجابه معاوية بقولته الحكيمة : « أما أنا فما دخلت مأزقاً قط » .

وقد وعيت قصة الساحر وحكمة « معاوية » ، منذ عرفت الحياة ، فانتفعت بهما أيما انتفاع .

* * *

أذكر على سبيل المثال أننى كنت أمشى — ذات يوم — فى الفلاة ، فأحسست وقع خطوات تقترب منى ، فأرهفت أذنى — دون أن ألتفت إلى الوراء — فسمعت همساً أدركت منه : أن اثنين يأتمران بسرقتى . وليس معى شىء يسرق غير الحمار . فلم ألتفت إليهما خشية أن يصيبنى منهما مكروه ، وتشاغلت بمحادثة نفسى تارة وبالغناء تارة أخرى ، حتى أهيىء لهما الفرصة لسرقة الحمار . وشعرت أن أحد اللصين يفك مقود حمارى ، ثم يضمه فى عنقه ويسلم الحمار إلى صاحبه .

فتغاضيت ومشيت — على عادتى — متبالهاً حتى دانيت المدينة ، واقتربت من العمران . فالتفت إلى الخلف ، وإذا باللص الخبيث مكان حمارى الطيب القلب ، والمقود فى عنقه ، وهو يمشى خلفى .

فتظاهرت بالحيرة والدهش ، وسألته متبالهاً لأهيىء له الجواب :

« من أنت ؟ وأين حمارى ؟ وكيف حللت مكانه ؟ » .

فأجابنى متخابثاً : « إن قصتى أيها السيد الكريم ، لا تكاد تصدق لغرابتها ، فأنا آدمى مثلك ، ولكنى غلوت فى الإساءة إلى أمى — فيما مضى من الزمان — فلما نفد صبرها ، واشتد غيظها علىَّ ، ابتهلت إلى الله داعية أن يمسخنى حماراً فاستجاب الله دعاءها .

فخرجت من البيت هائماً فى الطريق ، فلقينى بعض الأشرار ، فأسرع بى إلى السوق وباعنى لك . ومازلت أخدمك — فى أمانة وإخلاص — إلى اليوم ، ولعلى بذلك قد كفرت عما أسلفته لأمى من إساءة .

وقد رأيتنى الآن أسترد آدميتى ، فشيت خلفك مطرقاً مفكراً فيما لقيت من عجائب الحياة . وأغلب الظن أن أمى قد عاودها رضاها عنى ، فراحت تستغفر الله لى حتى استجاب دعاءها

مرة أخرى ، فخلعت عنى ثوب الحمارية ، واستردت من فورى ثوب الآدمية .

ترى كيف أجيب هذا الألعبان ؟

تمثلت فى الحال قصة الساحر والتاجر ، فلم أجد لى مندوحة عن التظاهر بتصديق هذا الكيذبان الماكر . فقلت له متبالها :

« حسبك ما لقيت من عقاب إلهى ، فهل تساعدنى على أن تتحرى مرضاة أمك ، وأن تبذل فى هذا السبيل قصارى جهدك » فساعدنى اللص على ذلك ، وهو يحسبنى — لغباوته — أكبر منفل لقيه فى حياته .

* * *

ثم لقيت حمارى بعد أيام يبيعه اللصان ، ولم أكد أدانيه حتى اختفى أولهما الذى لقيته منذ أيام ، وأسلم الحمار إلى شريكه ليتم بيعه .

فدنوت من الحمار ثم تظاهرت بأننى أسر فى أذنه حديثا موجزا .

فاشتدت دهشة الناس مما رأوا . ودفعهم الفضول إلى سؤالى عما همست به فى أذن الحمار . فقصصت عليهم قصتى بمسمع من اللص ، ثم ختمتها قائلا :

وهـأنذا أجد صاحبى قد خالف عهده ، وأغضب أمه مرة أخرى ، فلم يلبث أن عاودته حماريته وزايلته آدميته . فلم أتمالك أن أسررت فى أذنه معاتبا :

« لقد حذرتك — يا صاحبى — هذه العاقبة ، فلم تسمع . فلا تلومن إلا نفسك » . ولم يكد الحاضرون يستمعون إلى هذه القصة حتى استغربوا (أى : أغرقوا فى الضحك) .

وشعر اللص الأفاك بالحرج ، فتسلل هاربا وترك لى حمارى ، فعدت به إلى دارى ، وقضيت يوما راضيا محبورا ، قرير العين مسرورا .

* * *

وسرق بعض الأشرار مقود حمارى ، فبحثت عنه طويلا فلم أجده . وبعد أيام رأيته معلقا فى رأس حمار أكبر من حمارى . فلم أكد أقترب منه حتى رأيت صاحب الحمار — وكان شريرا فاتكا معروفا — ينظر إلى شزرا .

فتذكرت قصة الساحر والتاجر ، وقلت متظاهرا بأننى أحدث نفسى : « يالله العجب العاجب ! هذا رأس حمارى ، ولكن ما بال جسمه قد تغير » .

فكاد اللص يستلقى على قفاه من شدة الضحك ، وتجاوز لى عن المقود طائعا مختارا .

* * *

واستيقظت قبيل الفجر ذات ليلة على صوت لص ، فصبرت عليه حتى سرق كل ما فى البيت من متاع ، وتسللت فى أثره مقتفيا خطواته — وهو لا يرانى — حتى بلغ داره . فلم يكد يرانى حتى تملكه الدهش والحيرة . فنظر إلى يسألنى : كيف جئت إلى هنا ؟

فقلت له مداعبا : « جئت لأعرف الدار الجديدة التى انتقلت إليها » .

فاستظرف إجابتى ، واستحسن دعابتى ، ورد إلى أثاث بيتى ولم ينلنى منه أذى بعد ذلك اليوم .

* * *

وشعرت ذات ليلة بلص يقتحم دارى فاستولى على الخوف ، وأسرعت إلى خزانة صغيرة فاختبأت فيها بين ثنايا الفرش ، وكنت أعلم أن الدار خالية والحمد لله مما يسرق . وقد بحث اللص طويلا فلم يظفر من بحثه بطائل . وهم بالخروج ، ولكن خاطرا دفعه إلى فتح الخزانة ، فلما رآنى صاح فى غاضبا :

« مالى أراك مختبئا ؟ » فلجأت إلى الدعابة قائلا : « لقد أخجلنى أنك لم تظفر بما يستحق السرقة فى دارى فاختبأت فى هذه الخزانة ولم أجرؤ على مواجهتك » .

فضحك اللص مما سمع وكفانى شره وأذاه .

* * *

وشعرت بلص من الأشرار يسرق متاع دارى ذات ليلة ، فتشجعت وقلت له مداعبا :

« ما أضيعَ بحثك أيها السيد الكريم ! إنك تحاول عبثا أن تعثر فى ظلام الليل الحالك على شىء تسرقه من دارى . ولقد حاولت ذلك من قبلك فى رائعة النهار ، فلم أر شيئا فى الدار » .

ألا ليت الناس يذكرون دائما قولة صديق الألمعى الحكيم عبد الله بن المقفع : « إن الماء يبلغ — مع ليونته — ما لا تبلغ النار مع شدتها »

عبد الله عيجا

وفق الأصل : كامل كيلانى